المحاضرة الرابعة: مضامين شعر الخوارج في العصر الأموي

تمهيد:

ازدهرت الحركة الشعرية في العصر الأموي بشكل كبير، متأثرة بمجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، قد فرزت مناخا خصبا للشعراء حتى ينشط فنهم، ويؤثّروا بدورهم في حركة الحياة بصفة عامة. ويؤكد الدكتور قصي الحسين هذا التفاعل بين الأدب الأموي، وهذه العوامل بقوله: "والحركة الأدبية في العصر الأموي لا تشذ عن حركة الأدب بعامة في عوامل نموها وتلوينها، بل ربما كانت أكثر الحركات الأدبية التي شهدتها العصور الأدبية تأثرا بهذه العوامل"[1].

ويبدو أن تأثر العامل السياسي في الشعر الأموي، كان قويا وواضحا، يتجلى من خلال الانقسام الحزبي الذي وقع بين المسلمين، حول قضية الخلافة أو الحكم، وما أفرزته الظروف السياسية للعصر منذ اغتيال "عثمان بن عفان"، وإلى غاية تولي بني أمية مقاليد لحكم، يقول إحسان النُّصْ: "كان مصرع عثمان، وتولي علي الخلافة سنة (35 هـ) إيذانا ببدء انقسام المسلمين على أنفسهم، وافتراقهم إلى أحزاب وشيع تصطرع من أجل الخلافة والحكم، واتخذ الطامعون في الخلافة مقتل عثمان ذريعة لمناوأة علي ورفض مبايعته"[2].

ونشأ على إثر هذا الصراع الديني حول الخلافة صراعا سياسيا؛ حيث تكونت أحزاب سياسية كثيرة، منها الحزب الأموي الحاكم، والحزب الزبيري، وحزب الشيعة، وحزب الخوارج. وقد أشتد الاقتتال بين هذه الأحزاب بالسيوف، وبالشعر، "وقد ظلت هذه الأحزاب تصطرع حربيا ولسانيا طوال عصر بني أمية"[3].

حيث كان الشعر حاضرا بقوة داخل أتون هذه الصراعات المذهبية والسياسية، يقوى بها، من جهة، ويقويها من جهة أخرى، يقول الدكتور قصي الحسين في وصف هذه الحركة الأدبية الممثلة في الشعر: "ولكما كان يقوى العصف السياسي، وكلما كان يشتد أُوارُ القصف العسكري، كلما كانت تقوى حركة الشعر والشعراء بين الناس، فتستمر المعارك على المنابر وداخل الحوزات والخلوات"[4]؛ إن الشعر في هذا العصر كان داخل معترك الحياة السياسية، وطبعها بطوابع فكرية ولغوية معينة. ونقصد بهذه الطوابع الفكرية تلك القناعات والأفكار والتوجهات السياسية التي يسلكها شعراء الأحزاب السياسية في الدعاية لأفكارهم، أحزابهم، وفي مناوأة خصومهم السياسيين، "وكانت أفكار الحزبيّين والسياسيين وأصحاب الفرق الدينية تطغى على شعر شعرائهم. إذ سارع هؤلاء إلى نظم ذه الأفكار والمعتقدات أشعارهم، من أجل

---

[1]- قصي الحسين: تاريخ الأدب العربي –العصر الأموي، ط12، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1998، ص09.

[2]- إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1963، ص53.

[3]- المرجع نفسه، ص43.

[4]- قصي الحسين: تاريخ الأدب العربي، العصر الأموي، ص12.

إحكام البيان في دعاويهم ومن أجل تعبئة النفوس بين صفوف جماهيرهم، مما أجّج جذوة الشعر في الصدور وجعلها لا تهدأ قبل أن تحقق غايتها"[1].

إن هذا الصراع الذي يصفه الدكتور قصي الحسين، كان سببا مباشرا في تغذية الأفكار المذهبية والسياسية لدى شعراء كل حزب سياسي. وهذا أمر طبيعي، فالشاعر له حرية الانتماء لسياسي، وله أيضا الحرية في التعبير عن أفكاره، وتوجهاته التي يلتزم بها اتجاه حزبه، فمجال الحرية في العصر الأموي مفتوح أمام الشعراء.

حزب الخوارج:

يعد حزب الخوارج من أهم الأحزاب السياسية التي نشأت بعد موقعة صفين المشهورة، في أثناء التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، لفرضها نتيجة التحكيم بينهما، "وقد حققت غايتها في قتل علي، أما معاوية الذي نجا منها مع عمرو بن العاص، فقد أوقع بها، وحمل على دعاتها وفتك بهم، مما عمق العداء للدولة الأموية في نفوس عموم الخوارج قاعدة وقادة على حدّ سواء"[2]. وقد برز تسلط الدولة الأموية عليهم في شعرهم، وفي خصائصه الموضوعاتية والفنية. "وقد تعددت فرق الخوارج، ومن أشهرها: الأزارقة والاباضية، والصفرية[3].

يقول الدكتور غازي طليمات:"ولم يكن نقدة الشعر أبر بالخوارج من مؤرخيه، فابن سلاّم صاحب(طبقات فحول الشعراء)، لم يذكر أحدا من شعرائهم، وابن قتيبة مؤلف(الشعر والشعراء) أعرض عن أعلامهم، ولم يذكر إلا كبيرهم، وهو الطرماح بن حكيم ذكر الناقد الذي يتعقب سرقات الشاعر، ويتسقط سقطاته وغلطاته"[4].

موضوعات شعر الخوارج:

تعددت موضوعات شعر الخوارج ومضامينه في العصر الأموي، الأمر الذي جعل القصيدة الخارجية تختلف عما سبقها من قصائد الشعر الإسلامي والجاهلي؛ ويصف الدكتور طلعت صبحي السيد هذه الاختلافات في، قوله:"تختلف القصيدة الخارجية بصفة عامة في أغراضها عن غيرها من قصائد العصرين الجاهلي والأموي؛ فحين كانت القصيدة الجاهلية ومثلها الأموية بشكل عام تتعدد فنونها وأغراضها فإن شعر الخوارج كله يذهب في عدة موضوعات محددة تلتقي جميعها في الجهاد في سبيل المبدأ والعقيدة، فشعرهم في مجموعه يسجل أحداثهم التاريخية، ويصور حروبهم، ويمجد بطولاتهم، ويشيد بشجاعتهم وتفانيهم في الاستشهاد وطلب الثواب"[5]؛ فالقارئ لقصائدهم يلمح تلك السمات الموضوعاتية وبشكل خاص في موضوع الحرب والصراع بينهم وبين الحزب الحاكم أو الدولة الأموية.

---

[1]-قصي الحسين: تاريخ الأدب العربي، العصر الأموي ، ص12-13.

[2]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص93.

[3]- مأمون بن محي الدين الجنان: الكميت بن زيد الأسدي الشاعر السياسي، ص20.

[4]- غازي طليمات وعرفان الأشقر: الشعر في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2008، ص622.

[5]- طلعت صبحي السيد: الفروسية في شعر الخوارج،ط1، مطبعه ومكتبة الرضا، طلخا، مصر، 1985، ص182- 183 .

ويبرر الدكتور طلعت صبحي السيد هذا الاتجاه في مضامين شعر الخوارج بقوله:"ولم يذهب شعرهم هذا المذهب إلا لأنهم عاشوا حياتهم كلها يحاربون خصومهم، فكان لزاما أن تطبع هذه الحياة شعرهم بطابع متميز، فهو شعر ثوار يستعذبون الموت، غير آبهين بالحياة الدنيا، وهو شعر حماسي من جميع نواحيه، يتحمل للعقيدة والمبدإ"[1]؛ فكانت توجهاتهم الفكرية والعقائدية تقف وراء مضامين أشعارهم المتميزة .

ويؤكد الدكتور طلعت صبحي السيد أن قصائد شعراء الخوارج تختلف في موضوعاتها ومضامينها عن القصيدة التقليدية أو الجاهلية، حيث يقول:" فمن يراجع شعر الخوارج يتبين له أن فنون الشعر عند شعرائهم تكاد تخلو من الموضوعات التقليدية، فلم يتحدث شاعر منهم عن الخمر، ولم يتخذها موضوعا ولا غرضا، وتخلى شعر المديح عندهم عن وظيفته التقليدية، واستحال المدح عندهم إلى ثناء على الشراة أنفسهم، والإشادة بزعمائهم وتمجيد مآثرهم، فهم الأسود شجاعة وهم الأحبار خشوعا"[2]؛ وهذا حكم نقدي صدر عن الدكتور طلعت صبحي السيد تؤيده القصائد الخارجية؛ بما تحمله من مضامين، وبما تشتمل عليه من موضوعات. ويعلق أيضا على موضوع الهجاء فيقول:"كذلك كان الهجاء، فقد أصبح فيما بينهم نقدا لروح التخاذل والإخلاد إلى الدعة، وكان هجاؤهم لغيرهم يسير وفق العقيدة التي يعملون من أجلها وفي إطار الأهداف السياسية التي يسعون لتحقيقها، فهجو من ثم من يخالفهم في الرأي والاجتهاد، ورموهم بعصيان الله وغضبه، ولم يبق هنالك إلا أثارة يسيرة من هجاء فردي"[3]. ولا يبتعد رأي الدكتور غازي طليمات عن نظرة الدكتور طلعت صبحي السيد، في توصيفه لأغراض شعر الخوارج، في قوله:" يشق على الدارس أن يقسم شعر الخوارج إلى أغراض متمايزة، لأن شعراءه لم يأبهوا لطلل أو غزل، ولم يكترثوا بمدح أو هجاء، بل وسموا كل ما نظموا بميسم واحد، هو ميسم الحماسة. الحماسة للمبدإ والشعار، والحماسة لله والإسلام، والحماسة في الجهاد وطلب الشهادة. وضمن هذا الغرض الكلي تتبعثر المعاني الجزئية، لكنها في نهاية الأمر تتداخل وتتكامل، وتنسج من خيوطها أفكار الخوارج ومشاعرهم وسلوكهم"[4]

1- العاطفة الدينية:

يقول الدكتور قصي الحسين في تصوير مضامين العاطفة الدينية لدى شعراء الخوارج، فيقول:"فشعراء الخوارج رسموا صورا قوية الملامح لميولهم الدينية. فقد نوّهوا بتقواهم وزهدهم من جهة، وحرصهم على أداء فرائض الدين من جهة أخرى "[5]. ويذكر الكدتور مأمون الجنان نموذجين من شعراء الخوارج، معلقا على جوانب من العاطفة الدينية لدى شعراء الشراة، في قوله: "ومن الشعراء البارزين لدى الخوارج عمران بن حطان والطرماح يصوران مبادئ هذا الحزب تصويرا صادقا، ومن أهمها الخروج إلى

---

[1]- طلعت صبحي السيد: الفروسية في شعر الخوارج، ص 183 .

[2]- طلعت صبحي السيد: الفروسية في شعر الخوارج، ص 183 .

[3]- طلعت صبحي السيد: الفروسية في شعر الخوارج، ص182- 183 .

[4]- غازي طليمات وعرفان الأشقر: الشعر في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2008، ص622.

[5]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص100.

الجهاد في سبيل الله. وفي شعره معان مستمدة من القرآن، وصور مستمدة من آياته، ونفحات من الإخلاص لعقيدتهم والإيمان بها، والإقبال على الموت في سبيلها"[1]، يقول الطرماح بن حكيم: [2]

لَقَــد شَــقيتُ شَــقاءً لا اِنقِطــاعَ لَــهُ إِن لَــم أَفُــز فَــوزَةً تُنجــي مِــنَ النــارِ

وَالنــارُ لَــم يَــنجُ مِــن رَوعاتِهــا أَحَــدٌ إِلّا المُنيــبُ بِقَلــبِ المُخلِــصِ الشــاري

أَوِ الَّــذي سَــبَقَت مِــن قَبــلِ مَولِــدِهِ لَــهُ السَــعادَةُ مِــن خَلّاقِهــا البــاري

وقد عرفوا بقوة عقيدتهم، وصلابة مواقفهم وتمسكهم بالقرآن الكريم وعكوفهم على تلاوته. وكانوا ينادون بشعار لا حكم إلا الله، ومن أشهر شعرائهم، الطرماح بن حكم.

2- تصوير عقيدتهم:

للخوارج تعلق شديد بعقيدتهم، برز في أشعارهم؛ وقد تحدث الدكتور قصي الحسين على هذه العقيدة في قوتها، فقال:"يصور شعر الخوارج، هذه الطائفة العقائدية، ويتحدث عن نظرياتها المذهبية. وهم يرسلونها في ذلك الشعر إرسالا، ويقررونها كما آمنوا بها، فلا يقصدون من ذلك إثارة الجدل، ولا يهتمون بالتالي لإقامة الحجج والبراهين على صوابها كما يفعل شعراء الشيعة"[3]. ويبرر الدكتور قصي الحسين هذا التخلي عن الحجاج والإقناع من طرف شعراء الشراة (الخوارج)، بإيمانهم القوي بعقيدتهم، وبساطة فكرهم وتعصبهم لما يؤمنون به، ويوضح هذا في قوله:"فشعور الخوراج الديني لم يكن شعور المفكرين المتفلسفين، وإنما كان شعور البساطة والنباهة والإيمان القوي، القائم على العصبية والاندفاع بكل حماسة مهما كانت النتائج، دون الركون للحجج والبراهين"[4]. وقد ذكرت الدكتورة سهير القلماوي هذا المبرر الديني وأثره في شعر الخوارج، في قولها:"وكان لشعور الخوارج الديني والقراء المتدينين منهم خاصة أكبر أثر في أدبهم (شعرهم)، فجعل صبغة هذا الأدب العامة صبغة العقيدة القوية والإيمان نبها إلى أقصى حد (...) ومثل أدبهم شعورهم هذا بمميزاته فلم نجد في أدبهم جدالا أو دفاعا بالحجج والبراهين وإنما وجدنا نغما دينيا قويا في إيمانه ساذجا بسيطا يستمد جماله من هذه القوة ومن تلك السذاجة والبساطة"[5] ويوضح الدكتور غازي طليمات عقيدة الخوراج القائمة على القتال في قوله:"إذا استثنيت فرقة القَعَدَةَ- وهي التي ترى رأي الخوارج في السياسة ولا تسلك مسلكهم في القتال – فإنك لا تجد حزبا من الأحزاب السياسية والدينية قرن المعتقد النظري بالمسلك العملي على النحو الذي تجلى في حياة الخوارج وتاريخهم، ولا جماعة ثورية من الجماعات كانت أسنتها أقدر من ألسنتها على ترجمة أفكارها من الخوارج، كأن مبادئهم طبعت على سيوفهم"[6]. وتقوم عقيدتهم على تكفير أعدائهم ومخالفيهم، "ويتحدث شعراؤهم عن كفر الإمام علي ومعاوية وعمرو بن العاص، كما يتحدثون عن عقيدة الخروج والتضحية، وعن شراء

---

[1]- مأمون الجنان: جميل بثينة الشاعر العذري، (ط2)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992، 12.

[2]- الطرماح بن حكم: يوان الطرماح، تح. عزة حسن، (ط2)، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1994، 165.

[3]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص95

[4]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص95

[5]-سهير القلماوي: أدب الخوارج العصر الأموي،مطبعة لجنة التأليف والترجمة دار النشر القاهرة، مصر، 1937، ص41.

[6]- غازي طليمات وعرفان الأشقر: الشعر في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2008، ص619.

الآخرة بالشهادة، من أجل الظفر بالفردوس. كما يشيدون بعبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب، ويبشرونه بحسن مآله عند ربه. ويكفر شعراء الأزارقة من الخوارج (القعدة) الذين يقعدون عن الحرب، وقد أنذر الشاعر الخارجي قطري بن الفجاءة أحد القعدة وهو الخارجي أبا خالد فاتهمه أنه خرج عن ملة أهل الهدى الخوارج وهو لذلك، إما لص يقيم بعد خروج الرجال، لينسل إلى البيوت ويسرقها، وإما كافر بعقيدة الخوارج "[1]؛ حيث قال فيه: [2]

أَبــا خالِــدٍ يــا اِنفُــر فَلَسـتَ بِخالِــدٍ وَمــا جَعَــلَ الــرَحمنُ عُــذراً لِقاعِــدِ

أَتَــزعُمُ أَنَّ الخــارِجِيَّ عَلــى الهُــدى وَأَنــتَ مُقــيمٌ بَــينَ لِــصٍّ وَجاحِــدِ؟

وقد رد أبو خالد على رسالة قطري بن الفجاءة، واعتذر عن قعوده، مبررا ذلك بسوء أحواله المادية، فيقول: [3]

لَقَــد زادَ الحَيــاةَ إِلَــيَّ حُــباً بَناتــي إِنَّهــنَّ مِــنَ الضِعــافِ

مَخافَــةَ أَن يَــرَينَ البُــؤسَ بَعــدي وَأَن يَشرَبــنَ رَنــقاً غَيــرَ صــافِ

وَأَن يَعــرَينَ إِن كُسِــيَ الجَــواري فَتَــنبو العَــينُ عَــن كَــرَمٍ عِجــافِ

وَأَن يَضطَرَّهُــنَّ الدَهــرُ بَعــدي إِلــى جَــلِفٍ مِــنَ الأَعمــامِ جــافِ

فَــلَولا ذاكَ قَــد سَوَّمــتُ مُهــري وَفــي الرَحمــنِ لِلضُعَــفاءِ كــافِ

تَقــولُ بُنَــيَّتي أَوصِ المَــوالي وَكَيــفَ وَصــاةُ مَــن هُــوَ عَنــكَ جــافِ

أَبانــا مَــن لَنــا إِن غِبــتَ عَنّــا وَصــارَ الحَــيُّ بَعــدَكَ فــي اِخــتِلافِ

غير أن هذا الاختلاف أو القعود عن القتال لا يفسد للود قضية، يقول الدكتور شوقي ضيف:"لا يتحول مثل هذا الاختلاف في الرأي بينهم إلى هجاء حاد، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار. وكانوا يحسون حقا بتعاطف تراحم قويين بينهم، فهم أصحاب مقالة واحدة، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الذماء الأخير"[4].

ويؤكد الدكتور قصي الحسين إلى أن شعراء الخوارج يعتزون بعقيدتهم ويتمسكون بها، يقول:" والشاعر الخارجي يعتز بعقيدته، ويرفض كل عقيدة غيرها، ويرى أن من يخالف عقيدة الخوارج ملعون وضال وتائه . أما الخوارج اعتصموا بحبل الله. ويبدو الشاعر الخارجي في عقيدته بمنتهى البساطة والتلقائية، فلا

---

[1]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص95

[2]- أبو العباس المبرد: الكامل في اللغة والأدب،تعليق. محمد أبو الفضل إبراهيم،ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،1997، ج03، ص 124.

[3]- أبو العباس المبرد: الكامل في اللغة والأدب،تعليق. محمد أبو الفضل إبراهيم،ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،1997، ج03، ص 124.

[4]-شوقي ضيف: العصر الإسلامي،ط6، دار المعارف،القاهرة،مصر، 1963، ج02، ص 306.

يكلف نفسه عناء البرهنة والمناقشة والجدال كما يفعل شعراء الشيعة"[1]، ومثالهم في ذلك قول الشاعر الخارجي فروة بن نوفل الأشجعي وكان رئيس الخوارج: [2]

مـــا إن نبـــالي إذا أرواحنـــا قبضـــت مـــــاذا فعلـــتم بأجســـاد وأبشـــار

لقـــد علمـــت وخيـــر العلـــم أنفعـــه أن الســـعيد الـــذي ينجـــو مـــن النـــار

3- تصوير بطولاتهم الدينية:

يقول الدكتور قصي الحسين:" يرصد الشاعر الخارجي سلوك أبناء طائفته. فهم يتقربون إلى الله بعباداتهم. ويتمثل في شفافية أرواحهم وهزال أجسامهم وفي خوفهم ووجلهم من الله، فهم يرغبون في رضوانه، ويتحلون بمجموعة من الصفات الدينية السامية، لأنهم صادقون في عقيدتهم، وهناك شعر كثير يصف حال الشاري الدينية، وهي حال عامة يتصف بها الشراة من الخوارج على وجه التحديد"[3]

وفي ذلك يقول الطرماح بن حكيم:[4]

لله در الشـــــــــــراة إنهـــــــــــم إذا الكـــــرى مـــــال بـــــالطّلى أرقـــــوا

يرجعـــــــون الحنـــــــين آونـــــــة وإن عـــــلا بهـــــم ســـــاعة شـــــهقوا

خوفـــــا تبيـــــت القلـــــوب واجفـــــة تكـــــاد عنهـــــا الصـــــدور تنغلـــــق

قـــــوم شـــــحاح علـــــى اعتقـــــادهم بـــــالفوز ممـــــا يخـــــاف قـــــد وثقـــــوا

والخارجي ذو حماسة دينية شديدة، وغايته سامية في قتال خصومه السياسيين، فهو في جهاد مقدس، يخلص فيه لوجه الله، ويترفع عن الغايات والمطامع الدنيوية. فقد خرج "يزيد بن حبناء إلى القتال، فأرسلت إليه زوجته تطلب منه بعض الهدايا، فرد عليها قائلا: [5]

دع اللـــــوم إن العـــــيش لـــــيس بـــــدائم ولا تعجلـــــي بـــــاللوم يـــــا أم عاصـــــم

فـــإن عجلـــت منـــك الملامـــة فاســـمعي مقالـــــة معنّـــــي بحقـــــك عـــــالم

ولا تعـــــذلينا فـــــي الهديـــــة إنمـــــا تكـــــون الهـــــدايا مـــــن فضـــــول المغـــــانم

فلـــــيس بمهـــــد مـــــن يكـــــون نهـــــاره جـــــلاد، ويمســـــي ليلـــــه غيـــــر نـــــائم

يريـــــد ثـــــواب الله يومـــــا بطعنـــــة غمـــــوس كشـــــدق العنبـــــري بـــــن ســـــالم

أبيـــــت ســـــربالي دلاص حصـــــينة ومغفرهـــــا، والســـــيف فـــــوق الحيـــــازم

---

[1]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص96.

[2]- جار الله الزمخشري: ربيع الأبرار وفصوص الأخبار في المحاضرات،تح طارق فتحي السيد، ،ط3، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ج02، ص 139.

[3]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص 97.

[4]- احسان عباس: عر الخوارج، تحقيق. احسان عباس، ( )، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1974، ص238.

[5]- احسان عباس: شعر الخوارج، ص85.

ويقدم في هذه الأبيات سبب انشغاله عن إحضار الهدايا إلى زوجته، بكونه قد خرج مجاهدا يريد ثواب الله، فنهاره قتال، وليله يقظة ينتظر طعنة بسيف أو رمح تمنحه الشهادة التي يتمناها.

4- هجاء الخصوم:

وقد هجا الخوارج خصومهم هجاء شديدا، وكانوا يعتبرون بني أمية كفارا يحل فيهم الجهاد، ويرون أنهم منحرفون عن جادة الصواب مجانبون للحق[1]. ويتهكمون بالإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويقولون إنه أعرض عن كتاب الله ورضي حكم الناس إشارات لقبول الإمام "علي" بالتحكيم. ولذلك يقول ابن أبي مياس المرادي[2]:

ونحـــن ضـــربنا، يـــا لـــك الخيـــر، حيـــدرا أبـــــا حســـــن مأومـــــة فتفطّـــــرا
ونحـــن حللنـــا ملكـــه مـــن نظامـــه بضـــربة ســـيف إذ عـــلا وتحبّـــرا

وبعد مقتل علي واستئثار بني أمية بالحكم "انصرف شعراء الخوارج عن هجاء الشيعة إلى الأمويين، فقذفوهم بنصال الشعر الحادة، فجعلوهم من أهل الضلال والكفر. ولذلك فديارهم حرب، وقتالهم واجب ودماؤهم مباحة"[3]. وقد هجا عمران بن حطان الحجاج بن يوسف الثقفي بالجبن، وضعف الهمة وبسقوط المروءة، والعجز عن مقاومة الأبطال، بقوله[4]:

أســـدٌ علـــيّ وفـــي الحـــروب نعامـــة ربـــداء تجفـــل مـــن صـــفير الصّـــافر
هـــلّا بـــرزت إلـــى غزالـــة فـــي الـــوغى أم كـــان قلبـــك فـــي جنـــاحي طـــائر
صـــدعت غزالـــة قلبـــه بفـــوارس تركـــت مـــدابره كـــأمس الـــدابر
ألـــق الســـلاح، وخـــذ وشـــاحي معصـــر واعمـــد لمنزلـــة الجبـــان الكـــافر

ويعلق الدكتور قصي الحسين، على هذه المضامين:" فقد حرص بعض شعرائهم على الهجاء بمعان أخلاقية، تدفع الخصوم بالخزي والعار، في مجتمع عربي، كان أفراده يحرصون على التمدح بخصال الشرف وقيم المجد والمروءة"[5]

5- الرثاء وبكاء الشهداء:

وبالإضافة إلى الموضوعات السابقة طرق شعراء الخوارج (الشراة)، موضوع الرثاء أو بكاء الشهداء، "حيث وقف شعراء الخوارج يسجلون مهرجان الشهادة الذي أقامه الأبطال باندفاعهم وفدائيتهم، في قصائد

---

[1]- ينظر، قصي الحسين: العصر الأموي، ص99.
[2]- شعر الخوارج، ص35.
[3]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص100.
[4]- شعر الخوارج، ص 195.
[5]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص101.

مليئة بالسخط والحزن ومعاني الاستشهاد والإقبال على طلب الموت، ابتغاء للحياة"[1]. ويتميز هذا النوع من الشعر بعدم الجزع على شهدائهم بل إكبارهم لشجاعتهم.

يقول أيوب بن خولي، يرثي هدبة اليشكري، وهو ابن عم بسطام قائد الخوارج[2]:

تركت تميم بن الحباب ملحبا ... تبكّى عليه عِرسه وقرائبه
وقد أسلمت قيس تماما ومالكا ... كما أسلم الشحاج أمس أقاربه
وأقبل من حرّان يحمل راية ... يغالب أمر الله والله غالبه
فإن يك خلّي هدبة اليوم قد مضى ... فإنّي بآلاء الفتى أنا نادبه
فيا هدب للهيجا ويا هدب للنّدى ... ويا هدب للخصم الألدِّ يحاربه
ويا هدب كم من ملحم قد أجبته ... وقد أسلمته للرماح جوالبه
وكان أبو شيبان خير مقاتل ... برجّي ويخشى بأسه من يحاربه
ففاز ولاقى الله بالخير كله ... وخذّمه بالسيف في الله ضاربه

وقد كثرت المواقع التي قاتل بها الخوارج أعداءهم من بني أمية، وكثر فيها شهداؤهم الذي كانوا سببا مباشرا في بروز شعر الرثاء أو البكاء عندهم، "وقد غدا شهداء الخوارج الذين سقطوا في موقعة النهروان كابن وهب وأصحابه، رمزا لمعاني التضحية والشهادة في سبيل الحق، ومنبعا لكثير من شعراء الرثاء، الذي تمتزج فيه عواطف الحزن بعواطف الغضب والثورة"[3].

ويرثي عمران بن حطان أبا بلال مرداس بن أدية، وهو واحد من شهداء الخوارج، ويدعو الله أن يرزقه الشهادة مثله، فيقول:[4]

أَصبَحتُ عَن وَجَلٍ مِنّي وَإيجاسِ ... أَشكو كُلومَ جِراحٍ ما لَها آسي
يا عَينُ بَكّي لِمِرداسٍ وَمَصرَعِهُ ... يا رَبّ مِرداسٍ اِلحقني بِمِرداسِ
تَرَكتَني هائِماً أَبكي لِمُرزِئَة ... في مَنزِلٍ موحِشٍ مِن بَعدِ إيناسِ
أَنكَرتُ بَعدَكَ مِمَّن كُنتُ أَعرِفُهُ ... ما النّاسُ بَعدَكَ يا مِرداسُ بِالنّاسِ
إِمّا شَرِبتَ بِكَأسٍ دارَ أَوَّلُها ... عَلى القُرونِ فَذاقوا جُرعَةَ الكاسِ
فَكُلُّ مَن لَم يَذُقها شارِبٌ عَجِلاً ... يسقى بِأَنفاسِ وِردٍ بَعدَ أَنفاسِ
قَد كُنتُ أَبكيكَ حيناً ثُمَّ قَد يَئِسَت ... نَفسي فَما رَدَّ عَنّي عَبرَتي ياسي

[1]- قصي الحسين: العصر الأموي، ص101.
[2]-إحسان عباس: شعر الخوارج، ص197.
[3]- قصي الحسين: تاريخ الأدب –العصر الأموي، ص101.
[4]- إحسان عباس: شعر الخوارج، ص140- 141.

خصائص شعر الخوارج: [1]

لشعر الخوارج مجموعة من السمات والخصائص الفنية والموضوعاتية، ذكرها الدكتور قصي الحسين في معرض حديثه عن شعر الخوارج، أوردها على النحو الآتي:

– يكاد شعر الخوارج على اختلاف موضوعاته يمثل انعكاسا حقيقيا لحياتهم، من حيث عمق إيمانهم في عقيدتهم، ومن حيث شدة غضبهم وثورتهم. ولهذا نرى كيف تمتزج في شعر الخوارج روح التأمل والزهد بروح البطولة والتضحية والفداء والتهافت على الاستشهاد في ساحات الجهاد الديني، تظله سحابة من التبرم بالحياة ، والحزن لمصارع الأبطال المغلف بقوة الإيمان وشدة الغضب والثورة.

– وضوح الطابع الديني المذهبي الذي يعبر عن عقيدتهم ومذهبهم في معظم أشعارهم . وإذا كانت المعاني الدينية مشتركة بينهم وبين سائر الفرق الدينية، فإن شعر الخوارج امتاز بجعل هذه المعاني تتصل بالغضب والثورة وصور البطولة، أكثر من سائر أنواع الشعر لدى الفرق الإسلامية الأخرى . يقول عمر بن الحصين العنبري الخارجي:

متـــــــأهبون لكـــــــل صـــــــالحة نـــــاهون مـــــن لاقـــوا عـــــن النكـــــر

متـــــأوهون كـــــأن جمـــــر غضـــــا للمـــــوت بـــــين ظلـــــوعهم يســـــري

– نلمس في الشعر الخارجي، صدق الباعث وحرارة العاطفة، وهما يصدران عن إيمان راسخ وحماسة مندفعة ولذلك نراهم لا يؤمنون بالتقية في شيء من أفعالهم وأقوالهم.

– وبمقتضى هذا الإيمان وهذه الثورة ابتعد شعراء الخوارج عن الإطار التقليدي للشعر العربي، فتحاشوا الغزل التقليدي، كما تحاشوا الوقوف على الأطلال وبكاء الديار، أو وصف الرحلة إلى الممدوح، والفخر بالأحساب والأنساب والتغني بالماضي المجيد. أما الحب عندهم فيقترن بحب الشهادة . وأما التكسب والارتزاق فلم يعرفوا بابه.

– وتكاد روح الحزن تطغى على شعر الخوارج حيث ترافق أبياته نغمة حزينة مصدرها الغضب والثورة والألم النابع من عمق الإيمان . ولا غرو فالخوارج أهل حرب، والزهد عندهم يتصل بطلب الموت وتعجيله من أجل الظفر بالشهادة . ولطالما انتهى بهم هذا الأمر إلى طلب الزهد الخالص بعد تأمل طويل قادهم إلى الإحساس بتفاهة عوارض الدنيا . فشعر الخوارج يصدر عن قلق نفسي حزين، تماما كما يصدر عن نفس أنهكها التعبد والهجوع لله تعالى مع ما يتصل بذلك من تعال عن أمور الدنيا للانشغال بطلب الآخرة.

– إلى ذلك، فنحن نجد في الشعر الخارجي فصاحة العبارة وقوة الأسلوب وهما يصدران عن صفاء في الطبع وعراقة، قلما عرفت عند غيرهم من الشعراء، فطبعهم البدوي المهذب لم تفسده تقاليد الحضارة، ولذلك ظل صافيا نقيا، غذَّاه القرآن الكريم وأشجاه النغم النفسي الحزين.

– وشعر الخوارج قليل لا عن نضوب في العواطف والمعاني، وإنما لانصراف الرجال إلى القتال بدل الإنشاد، وتقديم الفعل على القول. ولهذا لم يكونوا شعراء في المقام الأول، بل فرسانا وأبطالا. فكانوا

[1]- قصي الحسين: تاريخ الأدب –العصر الأموي، ص101.

يصرخون بالشعر من أجل تعميق الحرب في نفوسهم . إذ الشعر وسيلتهم إلى الحرب، حين كانت الحرب عند الآخرين وسيلتهم إلى قول الشعر.

– ولعل أبرز ما عرف في شعر الخوارج هو التعبير عن وحدة فنية تتصل بالوحدة الموضوعية، خالفوا بهما عمودية الشعر العربي، وكأنهم يسعون بذلك لفنية جديدة اختص بها شعراء الخوارج دون سواهم . فتخلوا عن تقاليد في القصيدة العربية واستعاضوا عن ذلك بالمقطعات التي عبقت بعقيدتهم وإيمانهم وحزنهم وأسلوبهم كان شديد التأثر بأسلوب القرآن الكريم، إذ كانوا يحاذونه في الصياغة والمعاني، ليضفوا على شعرهم جلال المعنى ورقته وانسيابه وقد ظفروا به دون غيرهم من الشعراء.